فاعلية الاشتقاق اللغوي في وضع المصطلح
الاشتقاق الإبدالي نموذجاً

د. ممدوح خسارة

مدخل:

الاشتقاق عامة هو " أخذ كلمة من كلمة أو أكثر ، مع تناسب بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ و المعنى جميعاً " (١)

و يمكن أن يدرج تحت هذا الحد نوعان كبيران من الاشتقاق هما :

١-الاشتقاق الصرفي : و هوماتحدت فيه الكلمتان حروفاً و ترتيباً ، و هو يقوم على المشتقات السبعة المعروفة كاسم الفاعل و اسم المفعول ، و نحوهما .....وميدانه الدرس الصرفي . و قد سُمِّي أيضاً الاشتقاق الأصغر .نحو سلم، سالم ، سليم ، سلمان ،سلامة...

الاشتقاق اللغوي : وهو ما لم تتحد فيه الكلمتان تماماً من حيث الحروف و ترتيبها . وميدانه الدرس اللغوي .وهو يقسم بدوره أقساماً هي :

الاشتقاق الإبدالي : و هو ما اتحدت فيه الكلمتان في أكثر الحروف نحو : (أزَّ و هزَّ و رفع و ربع) . و يقوم على ظاهرة الإبدال و يسميه بعضهم الاشتقاق الأكبر (٢).

الاشتقاق التقليبي : و هو ما اتحدت فيه الكلمتان حروفاً لا ترتيباً نحو

(جبذ وجذب)، سماه ابن جني (٣٩٣ هـ) الاشتقاق الأكبر، وسماه

بعض المحدثين الاشتقاق الكبير ،وهو يقوم على ظاهرة القلب المكاني . (٣)

ج- الاشتقاق النحتي : وهو ما اتحدت فيه الكلمتان في بعض حروفهما دون بعض ، بأن تؤخذ كلمتان وتسبك منهما كلمة واحدة تكون آخذه منهما بحظ نحو (سبحل وحولق) ، ويسميه بعض المحدثين الاشتقاق الكُبَّار . (٤) وهو يقوم على ظاهرة النحت .

الاشتقاق الإلحاقي : ويعني اشتقاق كلمة بزيادة غير مطردة على كلمة أخرى تغيَّر من معناها ومبناها (٥) . وهو يقوم على ظاهرة الإلحاق . وإن كان ابن فارس (٣٩٥ هـ) قد عدَّ هذا القسم من الاشتقاق النحتي وفقاً لمذهبه القائل بأن معظم الجذور الرباعية موضوعة بطريق النحت ، ومثل له بنحو

(صَلْد وصَلْدَم) (٦) ،فإن معظم المحدثين يعدونه قسماً قائماً برأسه (٧) .

ولعلَّ التركيب المزجي لايخرج عن مفههوم الاشتقاق اللغوي ، ونرجح أنه قسم منه وقد أعرضنا عن تسمية القدماء لأنواع الاشتقاق لأمرين :

أحدهما : لآن تلك التسميات لاتشف عن مدلولاتها ومضموناتها .

وثانيهما :لأن اللغويين اختلفوا فيما بينهم في مدلولاتها وتسميتها : فما سماه ابن جني (٣٩٣ هـ) الاشتقاق الأصغر والصغير .سماه بعض المحدثين الاشتقاق العام (٨). وما سماه ابن جني الاشتقاق الأكبر سماه غيره الاشتقاق الكبير (٩) ، مع أن ابن جني استخدم مصطلحي الكبير و الأكبر ، دون أن يفرق بينهما .أما تسمية (الاشتقاق الكُبَّار) فهي من وضع المحدثين (١٠) .

ويعد الاشتقاق بنوعيه مع المجاز ركني التوليد اللغوي ،الذي " يعني ابتكار

كلمة جديدة غير موجودة لا في اللغة القديمة ولا في اللغة الحديثة بمعناها أو مدلولها "(١١) وهو يرمي إلى رفد العربية بمتطلباتها من الكلم الجديد مصطلحات و ألفاظ حضارة .و قد أقر مجمع القاهرة التوليد اشتقاقاً و مجازاً أداة تنمية لغوية واصطلاح عندما قال : " المولَّد هو اللفظ الذي استعمله المولَّدون على غير استعمال العرب . وهو قسمان :قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجاز واشتقاق ونحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك ، وحكمه أنه عربيٌّ سائغ ...." (١٢)

وقد قمنا بإحصاء الجذور التي جرى عليها الاشتقاق اللغوي في نصف المادة اللغوية لمعجم لسان العرب (حتى نهاية حرف السين من طبعة دار المعارف) .فكانت النتيجة كالآتي :

نحو (٧٥٠) حالة اشتقاق إبدالي ، و (١١٥) حالة اشتقاق تقليبي ، و (٨٥) حالة اشتقاق إلحاقي ، و (٢٠) حالة اشتقاق نحتي . و بذلك تكون حالات الاشتقاق اللغوي في كامل لسان العرب نحو (٢٠٠٠) ألفي حالة،علماً بأننا لم نعد الأفعال الرباعية في حالات الاشتقاق النحتي على مذهب ابن فارس، و لا في حالات الاشتقاق الإلحاقي كما يرجح أخرون ، بل عددنا الملحق ما ظهر الحاقه للنظرة الأولى نحو (أزرق و زرقم و) (١٣) و الحلق و الحلقوم .

فإذا استذكرنا أن الجذور الثلاثية و الرباعية المستعملة في العربية هي

(٦٤٠٣) (١٤) ، فإن إحصاءنا يعني أن ثلث الجذور اللغوية في العربية قد عمل فيها الاشتقاق اللغوي . و إذا جارينا ابن فارس في عد الجذور الرباعية منحوتة فإن عدد حالات الاشتقاق اللغوي سيصل إلى نحو (٣٣٦٨) جذراً

(١٥) ، أي إن نصف الجذور العربية عملت فيها ظاهرة الاشتقاق اللغوي بأقسامه ، و هذا كاف لأن يقعَّد الاشتقاق اللغوي و يعترف به أداة توليد لفظي و تنمية لغوية ، لا أن نقف عندما ذهب إليه كثير من القدماء من أن الإبدال و نحوه من أوجه الاشتقاق اللغوي سماعيّ " وليس معتمداً في اللغة ولايصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب " (١٦) .

ومما يجدر ذكره أن من الإشكاليات التي يعاني منها المصطلحيون العرب إشكالية الدلالة على الفروق التنويعية والتراتيبية أو التدرجيَّة في أنواع المسمَّى الواحد ، ويستعين المصطلحيون عادة للدلالة على الفروق التنويعية في المصطلح العام بوصف ذلك المصطلح أو إضافته ، وعلى سبيل المثال فإن مصطلح (Vis) وضع له المترجمون مصطلح (مسمار أو بزال) ، على اختلاف أنواع المسامير والبزالات في الصناعة الحديثة ، فثمة بزال حلزوني ، وبزال اسطواني ، وبزال مخروطي ، وبزال للأخشاب وآخر للصاج .. حتى إن الحرفيين وضعوا لها مصطلحات عامية على طريقتهم العفوية ليعبروا عن تلك الأنواع فقالوا : (برغي خشابي ، برغي سن صاج ، برغي كونيك ، برغي بعزقة ..) .

إننا نرى أن الاشتقاق اللغوي يمكن أن يفيدنا في الاستغناء عن المصطلحات المركبة وصفياً أو إضافياً بمصطلح من كلمة واحدة ومن المعروف في علم الاصطلاح أن المصطلح المفرد يفضل المصطلح المركب .

كما يمكن الإفادة منه في وضع مصطلح جديد بداءة ، انطلاقاً من مصطلح قديم تجمع بين مفهوميهما علاقة ما كعلاقة التضاد مثلاً ، فقد وضع العرب كلمة (الحذق) للدلالة على المهارة في الشَّيء ، و (الحذلقة) المشتقة

إلحاقاً ، للدلالة على ادِّعاء المهارة.

وإذا كنت أعرض الاشتقاق الإبدالي نموذجاً نظرياً لما يمكن أن يقدمه الاشتقاق اللغوي عامة، فإنه قد تحصل لي مجموعة كبيرة من حالات الاشتقاق اللغوي يمكن أن تقدم نموذجاً تطبيقياً لحل بعض الإشكاليات المصطلحية ، لاسيما إشكالية (الاشتراك) في المصطلح العلمي العربي ، الذي هو نقيض إشكالية (التعددية) فيه . ولعل قابل الأبحاث توضح ذلك.

فاعلية الاشتقاق الإبدالي في وضع المصطلح

الإبدال هو جَعْلُ حرف بدل حرف آخر في الكلمة الواحدة وفي موضعه منها (١٧) . وهو ضربان صرفيٌّ ولغويّ (١٨) .

فالصرفيُّ إبدال حرف بآخر لضرورةٍ صوتية طلباً للخفة وسهولة النطق كما في قولنا (ازدهر) إذْ أُبدلت الدال من تاء (افتعل) وأصل الفعل (ازتهر) ؛ أوقولنا (كساء) إذْ أُبدلت الهمزة من الواو ، وأصلها (كساو) (١٩) . وهذا النوع من الإبدال لا أَثَرَله في تنمية اللغة وتوليد ألفاظها . إنما هو سلوك صوتي بحت وهو مطَّرد في حروفٍ بعينها عند التقائها بحروف أخرى، يصعُب نطقُها متتالية دون تغيير يقع على أحدها .

أما اللغويُّ فهو جعل حرف بدل آخر من الكلمة لغير ضرورة صرفية ، وهو غيرُ مطَّرد ، كقولهم: هَتَنَت السماءُ وهَتَلَت (٢٠) أي أمطرَتْ ، وقولهم : الغَيْم والغَيْن (٢١).وهذا النوع من الإبدال ذو أثرٍ كبير في تنمية اللغة وتوليدِ مفرداتها ، وهو مقصودُنا عند إطلاق الكلمة .

جاء في المزهر قولُ ابن فارس : " ومن سُنَن العرب إبدالُ الحروف واقامةُ بعضها مقامَ بعضٍ : مَدَحَه ومَدَهَه ، وفرس رِفِلّ ورِفِنّ أي سابغ الذيل ، وهو كثيرٌ مشهور ...وممن أَلف في هذا النوع ابنُ السكيب وأبو الطيب اللغوي (٢٢) والواقع أن كتابَيْهما الموسومَ كلٌّ منهما بالإبدال هما مُعْتَمَدُ كلِّ من يَتَصَدَّى لدراسةِ هذه الظاهرة ، ومنهما استقى السيوطي جلَّ ماجَمَعَه حول هذه الظاهرة في مزهره ، وهما مطبوعان ومحقّقان .

لكنَّ أول مايَلفت النظر فيهما أنهما جَمَعا الألفاظ التي وقع فيها إبدالٌ دون تفريق بين ماهو صرفيّ أو لغوي . لذلك بلغ عدد حالات الابدال عند ابي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) نحو (٢٦١٦) حالة في حين بلغت بحسب إحصائنا نحو (١٥٠٠) حالة لأننا لم نرصد إلا الإبدال اللغوي.

و لعل أول من خطر بباله أن يُسَمَّي هذه الظاهرة اللغوية إبدالاً هو الأصمعي (٢١٦هـ) ، و شاركه في هذه التسمية ابن السكيت (٢٤٤هـ) ، عندما سمى كتابه (القلب و الإبدال) . ثم جاء الزجاجي (٣٤٠ هـ) فألف كتاباً سماه (الإبدال و المعاقبة والنظائر) ... و سمَّى أبو الفتح بن حني كتابه في الإبدال (تعاقب العربية) (٢٣) و لا ندري إن كان هذا الكتاب الأخير هو ما وعد به ابن جني في الخصائص من عزمه على شرح كتاب ابن السكيت في القلب و الإبدال .

وممن عدَّ الإبدالَ اشتقاقاً من القدماء السكَّاكيُّ (٦٢٦هـ) و شيخه الحاتمي(٢٤) .و من المحدثين : طاهر الجزائري و ضاحي عبد الباقي و عبد الله أمين و صبحي الصالح.

كان الغالب على تعليل هذه الظاهرة لدى القدماء ردَّها إلى اللَّهجات أو لغات القبائل بحسب تعبيرهم ." يقول أبو الطيب اللغوي في كتابه : ليس المرادُ بالإبدال أن العرب تَتَعَمَّد تعويض حرف من حرف ، و إنما هي لغاتٌ مختلفة لمعانٍ متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى لا تختلفا إلا في حرف واحد (٢٥) "فعلى رأيهم يكون (صُلْب و صَلْت) بمعنى واحد لقبيلتين (٢٦) ، و مثله أَرَقْتُ الماء و هَرَقْته (٢٧) . ومن الأدلة على تعليلهم اللهجي قولُ ابن جني : " وقد أُبدلت العينُ من الحاء في بعض المواضع ، قرأ بعضهم:(عَتَّى حين) يريد (حتى حين) (٢٨) ومن المعروف أن هذه قراءة عبد الله بن مسعود بلغة هذيل (٢٩) .

حروف الإبدال :

تباينت أقوالُ اللغويِّين حول الحروف التي تُبْدَل ،فقد ذكر أبو علي القالي في أمالية أنها اثنا عشر حرفاً (٣٠) . وجعلها ابن سيدة في مخصَّصه ثلاثة عشر حرفاً ، وزادها غيرُه إلى أربعة عشر حرفاً (٣١) . أما ابن مالك فقد ذكر في ألفيته أنها تسعة أحرف يجمعها قولهم (هدأت موطيا) (٣٢) ، لكنه عاد في (تسهيل الفوائد) فوضح الأمر مفرِّقا بين نوعَيْ الإبدال اللذين ذكرهما وهما الإبدال الصرفيّ المطَّرد، والإبدال اللغوي غير المطَّرد ، فقال رحمة الله : " يجمعُ حروفَ البدل الشائع في غير إدغام قولُك : (لِجد صرفُ شَكِس آمن طي ثوب عزته) . والضروريُّ في التصريف هجاء (طويت دائما) . وعلامةُ صِحَّة البَدَليَّة الرجوعُ في بعض التصاريف إلى المبْدَل منه لزوماً أو غلبة ، فإنْ لم يثبت ذلك في ذي استعمالَيْن فهو من أصلين " (٣٣) . ويُفْهَم من كلام ابن مالك في التسهيل أن

حروف الإبدال الصرفي ثمانيةٌ لاتسعة كما كان ذكر في ألفيَّته ، بإسقاط الهاء منها . وأن حروف الإبدال اللغوي هي اثنان وعشرون حرفاً ، أي إنه استثنى من حروف الهجاء العربي كلِّها سبعة أحرف هي :الحاء والخاء والذال والصاد والضاد والغين والقاف .لكننا تَتَبَّعنا كتاب ابن السكيت في الإبدال ، فوجدنا أنه أورد من الألفاظ ما يثبت وقوع الإبدال في كل الحروف حتى هذه الأحرف السبعة التي استثناها ابن مالك :

فمن إبدال الحاء ذكر حَبَش و هَبَش بمعنى جَمَع (٣٤) .و من إبدال الخاء ذكر طُخْرور وطُحْرُور للسَحابَة ، وحَشِيّ وخَشيّ لليابس (٣٥) . و من إبدال الذال أورد ذَرَق الطائرُ و زَرَق ، و الدَّحادِح و الذَّحاذح (٣٦) ، للقِصار ، و من الصاد : صاف السَّهْم و ضاف : إذا حاد عن هدفه (٣٧) . و من الضاد : ضَلاضِل وصَلاصل لبقايا الماء (٣٨). و من الغين : غَلَث و عَلَث : وضَعَ لطعامه العُلاثة و هي الإدام (٣٩). و من القاف : قَحَط و كَحَط وكَشَط و قَشَط (٤٠) .

يؤيد هذا الاستنتاج ما ذكره السيوطي من أن أبا حيان الأندلسي نقل عن شيخه أبي الحسن بن الصائغ قولَه : و قلَّما تجدُ حرفاً إلا قد جاء به البدلُ و لونا درا (٤١).

ولعل اختلاف اللغويين حول عدد حروف الإبدال مردُّه إلى تقدير كل منهم ــ بحسب ما وصلَ إليه ــ لنسبةِ شيوعِ الإبدال في كل حرف. و الذي نُرَجِّحه أن الذين قللوا من عدد حروف الإبدال إنما كانوا يذهبون إلى أن ذلك هو ما اشتُهر منها و لم يكن كلاً منهم على وجه التحديد والإحصاء، و لهم في

ذلك بعضُ العذر فليست نسبةُ شيوعِ الإبدال واحدةً في كل الحروف ، بل هي متفاوتةٌ تفاوتاً شديداً ، إذ إن بعضهاْ لم يأتِ عليه من أمثلة الإبدال إلا كُلَيْمات ، أما بعضُها الآخر فتجاوزت حالات الإبدال فيها العشرات .

أنواع الإبدال :

قسم بعض الدارسين المعاصرين الإبدال أنواعاً هي (٤٢) :

الإبدال الصَّرْفِيّ الذي ذكرناه ، و الإبدال اللَّهْجي ، كقولهم عَلِجّ بدل عَلِيّ ، و الإبدال الشاذ كقولهم : هَرَحْتُ الدابة بدل : أَرَحْتُ الدابة ، و إبدال الضرورة الشعرية كقولهم : ثَعَالي بدل : ثعالب و قولهم : سادي بدل سادس . و زاد غيره أنواعاً أُخَر منها (٤٣) : إبدال خَطَأ السمع نحو : عَبّهلَة و عَذّهَلَة (٤٤) ،و إبدال التصحيف نحو العابر و الغابر ، و إبدال التضعيف نحو الخَرُّوب و الخَرَنُوب ، و إبدال التعريب نحو الفسطاط و الفستاط ، و إبدال التفخيم نحو : مَتَّ و مَطَّ ، و الترقيق نحو : غَلِطَ و غَلِت ،و إبدال الإتباع نحو :حارّ يارّ و جائع نائع ، و إبدال التعاقب نحو ألَّب و أرَّب ، و إبدال الاختلاف نحو :الصَّاعقة والصَّاقِعة، و إبدال التوهم نحو : اقْتَسَره و اعتَسَره .

و هذه التقسيمات الفرعية تدخل كلها في إطار النوعين الرئيسيَيْن اللذين ذكرنا و هما الصرفيّ و اللغويّ .

إن إبدالات الضرورة الشعرية و التصحيف و خطأ السمع والتعريب والإتباع لا تهمنا في دراستنا هذه لأنها ليست من وسائل التوليد اللغوي . أمّا ما يهمنا فهو ما سوى ذلك، مما يدخل في إطار ما سمَّوه بالإبدال اللَّهْجي خاصةً

و اللغوي عامة .

الإبدال و أثره الدلالي عند القدماء :

درج بعض اللغويين على تقديم الألفاظ الإبدالية و كأنها من مرادفات ألفاظها الأصليَّة . و ممن ذهب هذا المذهب أبو الطيب اللغوي إذْ قال كما قدمنا :"ليس المراد بالإبدال أن العرب تَتَعمَّد تعويض حرف من حرف ، و إنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان في لغتَيْن لمعنى واحد حتى لا تختلفا إلا في حرف واحد (٤٥) " . و بُني على هذا الفهم للإبدال أنْ ذهب لغويون قدماء إلى عدِّ كلَّ أشكال الإبدال سماعيَّةً ، و يعبَّر عن هؤلاء قول ابن جني : " فنحن نَتَّبِعُهم في الإبدال ولا نَقيسُه ، إلا أن يضطر امرؤٌ إلى الدخول تحت القياس

و القول به ." (٤٦) . و قول السيوطي : " إنه –أي الإبدال – ليس معتمداً في اللغة و لا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب " (٤٧) .

إننا لا نؤيِّد ما ذهب إليه بعض اللغويين القدماء من أن الإبدال لم يكن له من عملٍ إلا الترديفَ أي توليد المترادفات ، فلقد أدَّى بنا استقراء عددٍ من كتب اللغة و معجماتها و لا سيما معجمات الموضوعات إلى نتيجة مفادُها أن الإبدال كان وسيلةً اشتقاقية لتوليد ألفاظ جديدة تحمل معاني تَنْويعِيَّة على المعنى العام للكلمة الأصلية التي وقَع فيها الإبدال .ونحن ذاكرون شواهدَ تراثيَّة على سبيل التمثيل لا الحصر :

لم يَغْفَل ابنُ السكيت صاحب أول كتاب في الإبدال عمَّا يَحْمله الإبدالُ من تنويعاتٍ على المعنى العام ؛ يقول في باب النون واللام : " يقال :هتَنَت

السماء تهتُن تَهْتاناً ،وهَتلَت تَهْتَالاً، وهُنَّ سحائبُ هُتَّن وهُتَّل ، وهو فوق الهَطْل "(٤٨) .

قال الفارابي في ديوان الأدب : " الشازب الضامرمن الإبِل وغيرها ... والشاسب أشدُّ ضُموراً من الشازب " (٤٩) .

ولعل أكثرَ مَنْ أشار إلى مايحمله الإبدالُ من تنويعات على المعنى الواحد هو أبو منصور الثعالبي في كتابه (فقه اللغة) . ومماورد فيه " حَزَّ اللحمَ وجَزَّ الصوفَ "(٥٠) وكلاهما تنويعٌ خاص على معنى القطع العام . ومثله أيضاً :

" القَصْم : كَسْر الشئ حتى يَبين ، والفَصْم : كسرهُ من غير بَيْنونة " (٥١) . ومنه : " إذا أخرجَ المكروبُ أو المريض صوتاً رقيقاً فهو الرَّنين ، فإذا أَخْفاه فهو الهَنين ، فإذا أَظْهَره فخرج خافياً فهو الحَنين ، فإذا زاد فيه فهو الأنين ، فإذا زاد فيه فهو الخَنين " (٥٢) . إن التنويعات الدلالية التي أدخلَتْها أحرفُ الإبدال على المعنى العام لمجوعة هذه الكلمات وهو صوت المريض ، هي مما لايَخْفى.

ومما جاء في مخصص ابن سيدة : " الحَوَص : أن تضيق إحدى العينين دون الأخرى ... والخَوصَ : ضيقُ العين وصِغَرها خِلْقة أو داءً " (٥٣) وجاء فيه : " العَطَفُ: كثرةُ شعر الحاجبَيْن ... والغَطَف : قِلَّةُ شعر الحاجبين ، وربما استعمل في الشَّعر ، وهو ضد الوَطَف " (٥٤) فالعَطَف والغَطَف والوَطَف دلالتها العامة على شَعْر الحاجبين ، لكنَّ بعضها دل على الكَثْرة والآخر على القِلَّة : وحول الشَّعْر أيضاَ جاء قولُه : " الجَلَحُ هو أن يذهب من مقدَّمه (مقدم الرأس) ثم الجَلَه ثم الجَلاَ وهو أكثرُ من ذلك"(٥٥) .

هـ ــ وممَّا نَقلَه ابن منظور في لسان العرب :" إذا كانت في السَّرة نَفْحَةٌ

فهي

(بُجْرَة) ، وإذا كانت في الظَّهر فهي (عُجْرة) " (٥٦) . وورد فيه قولهم : " لقد أَبْعَطُوا إبْعاطاً شديداً أي أبعدوا ولم يقرُبوا من الصلح ..... وأَبْعَطَ في السَّوْم : تباعد و تجاوَز القدر (٥٧) و نلحظ كيف أن الإبعاط قد جاء لدلالةٍ اجتماعية خاصة هي البُعد عن الاتفاق و ليس لدلالته المكانية العامة . وقد صرح ابنُ منظور بالفروق الجزئية التي يوفرها الإبدال فقال في مادة (تَلَع) : تَلَع الرجل رأسَه : أخرجَه من شيء كان فيه ، وهو شِبْه (طَلَع) إلا أن طَلَع أعمّ (٥٨) .

إن ما ذكرناه حول الأثر الدلالي لظاهرة الإبدال لم يكن إلا تمثيلاً ، ولو أرَدْنا الإحصاء لضاقت بنا الصفحات ، فهل من مسوِّغ بعد هذا لأنْ يُقال إن الإبدالَ هو اختلافٌ لَهْجيّ ليس غير ، كما صرَّح أبو الطيب اللغوي ، أو أنَّه تطوُّرٌ صوتيّ لا أكثر ، كما نُقِل عن الدكتور ابراهيم أنيس (٥٩) .

ثم إذا كان العرب قد أعطَوْا لِتغيُّرِ الحركات دلالاتٍ تنويعيَّة كقولهم : شَرْبة وشِرْبة و شُرْبة ، و قولهم : الدَّهريّ – بفتح الدال للملحد و الدُّهْري – بضم الدال – للمعمَّر ، و إذا كانوا قد حَمَّلوا تتابُعَ الحركات في البناء معنى تتابع الحَدَث نحو : النَّقَزَان و الغَلَيَان ، فقابلوا بتواالي حركاتٍ المثال توالِيَ حركات الأفعالِ (٦٠) . فأيَّةُ غرابةٍ في أن يعُطْوا للإبدال دلالاتٍ خاصة بحسب حاجتهم التعبيرية ؟ إننا لا نُنكر أن يكونَ بعضُ الإبدال اللغوي لغات قبائل أو لهجاتٍ ، على حد تعبير المعاصرين ، إلا أننا نُنكر أشد الإنكار أن يكون هذا الإبدالُ دون دلالاتٍ البتة.

ولايُقَلِّل من القيمة الدلالية للإبدال أن تُعَدَّ كلٌّ من الكلمتَيْن المظنونِ وقوعُ الإبدال فيها، أصلاً في بابها . يقول ابن جني : " بابٌ في الحرفَيْن المتقاربين يُستعمل أحدُهما مكان صاحبه : فمتى أمكن أن يكونَ الحرفان جميعاً أصلَيْن ، لم يَسِغ العدول عن الحُكم بذلك ،فإن دلَّ دالّ أودَعَتْ ضرورةٌ إلى القول بإبدال أحدهما من صاحبه عُمِل بموجب الدلالة ، وصِيرَ إلى مُقتضَى الصنعة . ومن ذلك قولُهم : هتَلَت السماءُ وهتَنَت ، هما أصلان ألا تراهما متساويين في التصُّرف، يقولون : هتنت السماءُ تهتاناً : وهن سحائب هُتَّن وهُتَّل (٦١) . لقد ذهب ابن جني هنا إلى أصليَّة كلٍّ من الحرفين النون واللام وأنهما ليسا مبدلَيْن أحددهما عن الآخر ، ولكن هل يعني الحكمُ بأصليَّتهما الحكمَ بترادف الكلمتَيْن (هَتَل وهَتَن) ، وهل يعني أيضا أن (هتَل وهطَل) مترادفان وقد رأينا ابن السكيت يبيِّن الفروق الدلاليه فيصرح أن الهَتْل فوق الهَطْل ؟

إن اللغويين يفرِّقون بين الحرف المبدَل والمبدَل منه من قِبَل أن الحرف المبْدَل يسقُط في التصريف، وأن المبدَل منه يثبُت ، كما يدل على ذلك قول ابن جني السالف ؛ ولكننا نرى أن هذا الحكم – على صِحَّته – ليس مطلقاً ، فقد يحدث أن يقع الإبدال في حرفٍ من حروف الكلمة ويشيع وتُصَرَّف الكلمةُ التي وقيع فيها ، فلا يدُرَى حينئذ أيُّ الحرفين هو الأصل وأيهما هو المبْدَل . فإذا كان أكبر لغويَيْن في القرنين الثالث والرابع أعني أبنَ السكيت وابن جني ، قد اختلفا في أصليَّة أو بدلية أحرف كلمةٍ واحدة هي (هَتَلَ وهَتَنَ وهَطَل) إذ عدَّها ابنُ السكيت من المبْدَلات ، بدليل ذكرِها في كتابه ، وعدَّها ابنُ جني أصولاً بنصِّه ، فكم سيكونُ من العسير علينا نحن المحدَثين أن نميِّز بينهما ؟ ومن هذا القبيل في الخلاف بين اللغويين ماجاء في لسان العرب في مادة (تبن) بمعنى

دَقَّقَ النظرَ : " قال الليث : طَبِن له ، بالطاء في الشرّ . وتَبِن له ، في الخير . قال أبو منصور: هما عند الأئمة واحدٌ ، والعربُ تُبدل الطاء تاءً لقرب مخرجيهما؛ قالوا : مَتَّ ومَدَّ ومَطَّ ... ولعل من قال بأصليَّة كلٍّ منها ذهب إلى أن هذه الأحرف (التاء والدال والطاء) تَثْبُت في تصاريف كلِّ فعلٍ منها ؛ هذا صحيح ، ولكن هل نحن مقتنعون بأن (مَدَّ ومَطَّ) هما بمعنى ؟ وهل يَصح قولُنا (مَطَّ الحبلَ) كقولنا : مَدَّه،وهل يصح (مَطَّ إليه بنسب) كقولنا : مَتَّ إليه بنسب ؟ وهبَنْا سَلَّمنا أن هذه الأحرف في الكلمات الثلاث هي أصول كلُّها ، فبماذا نُعَلل هذا التقاربُ بين معاني كلماتِها ، وهو تقارُبٌ يدل على فروقٍ نوعية في المعنى العام لها وهو (الإمطار) في مثال الثعالبي و(المِدّ) في مثال أبن منظور ؟ هل نلجأ إلى الاستعانه بمقولة القيمة التعبيرية للحرفِ العربي، هذه المقولة التي تحمل من خِصْب الخيالِ اللغوي أكثر مماتحمل من الحقائق اللغوية ؟

إن أمثال هذه التغيرات بين حروف الكلمات متشابهةِ المعنى لابد من أن تكون – على الغالب – أحدَ شيئَيْن :

أ – إمَّا إبدالاً مقصوداً طرأ على الكلمة طَلَباً لمعنى جديدٍ بعد أن كانت قد وُضعت على حرفٍ واحد لمعنى أصلي ، إذ لايُعْقَل أن يضَعَ الواضع كلمتَيْن مترادفتين بداءة .

ب- واما أن تكون اختلافاً لهجياً بين القبائل ،كانت تدل على الترادف أولاً ثم تطورت إلى أن أصبح لكل كلمةٍ معنى يُغاير معنى الكلمة الأولى .

وفي كلتا الحالتين فنحن أمام تغييرٍ في حرفٍ من أحرف كلمةٍ أدى إلى تغيير محدَّد في المعنى ، وهذا مانُسميه إبدالاً دلاليا . وإن هذا الإبدال الدلالي

يؤدِّي وظيفةً مطلوبة في اللغة ، وهي الدلالة على الفروق النَّوعيَّة الجزئيَّة في إطار المعنى العام ، دون النظر إلى الحرفين هو أصلٌ وأيهما هو المُبْدَل ، وهو يقابل الإبدال اللغوي غير الدلالي ، كإبدال الإتباع والتصحيف وخطأ السمع ، مِمَّا أخرَجْناه من دائرة اهتمامنا .

الاشتقاق الإبدالي لدى المحدثين :

سلف القول إن بعضَ القدماء ومعظَم المحدثين سموا الإبدال بالاشتقاق الأكبر(٦٢) وفي هذه التسميه إقرارٌ بأن الإبدال من أنواع الاشتقاق ،وأننا آثرنا– للتوضيح– تسميته بالاشتقاق الإبدالي . وهو اشتقاقٌ يقوم على الإبدال اللغوي الدلالي الذي يحمل معه تنويعاً على المعنى العام للكلمة المبدَلِ منها حرف .

أقر اللغويون المحدَثون الاشتقاق الإبدالي وسيلةَ توليدٍ هامة . ودعَوْا إلى الأخذِ به على الصعيدين : النظري والتطبيقي :

١– فعلى الصعيد النظري : دارت حوله بحوثُ عديدٍ من اللغويين المحدثين راميةً إلى الأخذ به وتقييسه :

أ– حاول د. صبحي الصالح أن يربط هذه الظاهرة بنظرية الثنائية اللغوية عندما قال : " فكان من أسرار العربية تبعاً لهذا أننا كلما ردَدْنا موادَّها المزيدة إلى الصورة الثنائية التاريخية وجَدْنا الحرفَ الذي ثَلَّث أصلَها مايبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية ، توجِّه المعنى العام الأصلي ؛ توجيهاً خاصاً وتزيده تنوُّعاً وتَقْييداً (٦٣) .

" ودلَّل على ذلك بأن " الِذْل أصلٌ عام للشجر ، ولكنه للنخلِ (جِذْع) ،والعين الحلقيَّة أقوى من اللام المِذْلَقة " (٦٤) لانُريد الدخولَ في بحث قُوَّة الحروف

وضعفِها فما كتُتب حولها حتى الآن لايرتقي إلى مستوى الدراسة العلمية الإحصائية . كما لانريد الدخولَ في بحث نظريَّة ثنائية اللغة ، إذْ ليس هذا مكانَ بحثها ؛ كما أن مقولَتنَا تستقيم دون الاعتماد عليها أصلاً . ولكنَّ ففي عبارة الدكتور الصالح مايُبيِّن موقف المحدَثين من مَهمة الاشتقاق الإبدالي .

ب- أما الأستاذ عبد الله أمين ، صاحب كتاب الاشتقاق ، فقد كان أوضحَ وأكثرَ مباشرةً في دعوتِه حين قال : " وهذا الضربُ من الاشتقاق يمكن أن يُنْتَفَعَ به في اشتقاق اسمَيْن لمسَمَّبَيْن متشابهَيْن في الشكل والعمل أو في أحدهما ، إن كان بين الأسمَيْن والمسمَّيَيْن ملاءمةٌ ؛ مثال ذلك : (الغُمْنَة والغُمْرَة) ، يمكن أن يسُمَى المسحوقُ الذي تطْلي به السيداتُ وجوهَهن وأيديَهن (غُمْرَة) ، والمعجونُ الذي يُستْعَمل استعمالَه (غُمْنَة) ، بإبدالِ النون من الراء ،لتقاربهما مخرجاً وصِفةً .

و(الأزْمَة والأزْبَة) وهي الضيِّق والشدَّة ، يمكن أن نُطلق على الضِّيق المالي (أزمة) وعلى الضيق السياسيّ مثلاً (أزبة) ، بإبدال الباء من الميم لتجانسهما أي اتفاقهما مخرجاً واختلافهما صِفة ... و(الكَثْأة والكَثْعَة) مايَعْلُو اللبنَ من دَسَم ، يمكن أن يُطْلَق أحدُ اللفظيين على مانسميه (القِشْدَة) والآخر على مانسميه (الكريم) بإبدال الهمزة من العين لتقاربهما مخرجاً وصِفة " (٦٥) .

ج – ادرك المجمعي عز الدين التنوخي أهميَّة الإبدال في وضع المصطلحات العلميَّة فقال في مقدمة تحقيقه لكتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي : " ومن فوائده أنه قد يُنْتفَعَ به في المصطلحات العلمية ، بتخصيص اللفظتَيْن المتعاقبتَيْن (٦٦) لمسميين متشابهين بينهما علاقة معنوية "(٦٧) . وبعد أن

يستعرض جُملةً صالحةً من أمثلةٍ قديمةٍ وحديثةٍ تُؤَيِّد مذهبَه قال : " وعلى هذا الأسلوب أرى أن نُسَمِّي كَسَّارة الجوز (casse -noise) : مِرْضَخَة ، وكسَّارةَ اللَّوز(casse-noisette):

مِرْضخَة ، بالحاء المهملة ، والعكسُ جائز . وأرى أن سَلَفنَا الصالحَ عَرَف كيف يستعمل لُغَتَه فخَصَّص (الغَبْن) للثوب و(الخَبْن) للعَروض ، وهما في الأصل بمعنى متشابِه " (٦٨) .

د- أما الأستاذ عبد الله العلايلي ، فقد تجاوز الإقرارَبه وسيلةَ توليدٍ هامة ، إلى اقتراح شروطٍ للإفادة منه فقال : " ومافائدةُ الإبدال في الوضع الجديد ظاهرةٌ جداً ، وذلك لأنه يُفْزَع إليه عندما تكونُ المادة قد استَوْفَت الوَضْع ؛ وينبغي أن يَخْضَع لشروط حتى لايكونَ سبباً لاشتراك قريب " (٦٩) . وسنعرض لهذه الشروط بعد قليل .

٢- وعلى الصعيد العماي التطبيقي : أَفاد المعرِّبون المحدَثون من الاشتقاق الإبدالي في وضَعْ مصطلحاتهم :

أ- فقد تَرْجَم مترجمو (معجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات – كليرفيل)وهم الدكاترة :(مرشد خاطر وحمدي حمدي الخياط وصلاح الدين الكواكبي) مصطلحَ

(anesthesie) بكلمة (التَّخْدير) ، ووَضَعُوا لمصطلحِ (narcose) كلمة (التَّخْتِير) بإبدالِ حرف التاء بالدَّال .كما ترجموا كلمة (nucose) بالمِخَاط ، ووضَعوا لكلمة

(glaire) كلمة (المغَاط) ،بإبدال حرف العين بالخاء (٧٠) .

وأفاد المجمعي مصطفى الشهابي في معجم المصطلحات الزراعية من كلمتَيْ (التأْريث والتأْريف) المبدَلتَيْن قديماً بمعنى وَضْعِ الحدودِ بين أرضَيْن ، فترجم المصطلح (abornage) بكلمة (تَأريث) وترجم(cadastre) بكلمة (تَأْريف) (٧١) .

ج – وفي (مصطلحات مسيرات الخيل) للدكتور سلمان قطاية أراد أن يُفرِّق بين أشكال وَقْفِ الفرس مستفيداً من إبدالات القدماء فقال : " أما إذا كان الوقوف فجأةً فهو الكَبْح والكَمْخُ أو الكَمْح ..... وللكبحِ أشكال ثلاثة :

إمساك خَلْفي يَتَكَدَّس الجسم كليَّةً تقريباً الخلفيَّتين ومؤخَّرالجسم ولنسمِّه (الكَمخْ) بسبب وجودِ الخاء فيه .

إمساك أماميّ يتكدس الجسمُ كليَّة على الأماميتَّين ومقدَّم الجسم ولنسمه (الكَمْح) لوجود حرف الميم فيه .

إمساك رُباعي يتكدس الجسمُ فيه على الأطرافِ الأربعة ولنسمِّه (الكَبْح) لوجود حرف الباء من (أربعة) فيه " (٧٢) .

وهكذا أمكن هنا توظيف هذه الحالات الإبداليه التي كان يُنْظَر إليها قديماً على أنها نوعٌ من الترادف اللفظي ليس غير ، أمكنَ توظيفها لأداء معاني تفصيليَّة تنويعيَّة في إطار المعنى العام للكلمة الأصل وهو الإيقاف .

د– وفي سياق استخدام الإبدال في مصطلحات فيزيائية يقول د. عبد

الكريم اليافي : " وعمَدْنا إلى (الأويِّل) مقابل لفظ (proton)، فاستبدَلْنا الميم في المعتدل باللام فأصبح معنا (الأوُتِّم) مقابل نيوترون (neutron) ، كما استبدَلْنا أيضاً بهما النون من أول لفظ النواة فصار معنا (الأُوَيِّن) (nucleon) ، وهو الجزء الأصلي من نواة العنصر . وكذا قلنا ماقاله غيرُنا (الكَهْرَب) مقابل (electron) ثم بدَّلنا الباء سيناً للإشارة إلى كونه سالباً فصار (كهرسا) مقابل (negaton) وبدلنا الباءَ جيماً فصار(كهرجا) مقابل(positon) وهلم جِرّاً" (٧٣).

إن تجربة كلٍّ من الدكتور اليافي وقطاية — لاتَنْطلق نظريَّاً من ظاهرة الإبدال فحسب بل هي تفعلها بالممارسة العملية .

هـ – كما استخدم الدكتور صلاح الدين الكواكبي ظاهرة الإبدال في التفريق بين مصطلحَيْن متقاربين فقال :" brasser= المرْث ، كالمرْس زِنَةً و معنىً، خصَصَّتها بما يُمْرسَ في الصيدلة ، تمييزاً من غيرها من العمليَّات

الصيدلانية."(٧٤)

قواعد الاشتقاق الإبدالي :

إن ما ورد في الفقرتين الأخيرتين السابقتين يثير أيضاً مسائل حول طريقة الاشتقاق الإبدالي :

المسألة الأولى التي يثيرها هذا الاشتقاق هي :أي الأحرف الثلاثة أحق بالإبدال منها : الأول أم الأوسط أم الأخير ؟ و لكل منها ما يؤيد الإبدال منه .

– فمن إبدال الحرفِ الأول مرَّ بنا : (هَنين و حَنين و أَنين و خَنين و رَنين) التي تدل على تنويعات صوت المريض بالتدرُّج صُعُداً .

و من إبدال الحرف الثاني : الشاسِب و الشازب للضامر ، و هَطَل و هَتَل ، و الكَبْح و الكَمْح .

و من إبدال الحرف الأخير في الثلاثي : هتَنَ و هَتَل ، و الجَلَحُ- لذهاب الشعر – و الجَلَهُ و الجَلا .

ولا نظن أن الدراسة الإحصائية – و لو تَوَفرَت – قادرة على ترجيح أي من الأحرف بالإبدال ، ما دام السماع قد ورد بكل منها . و لذا فلا يَسَعُنا إلا تقرير أن كلاً من الأحرف : الأول أو الثاني أو الأخير قابلٌ للإبدال منه ، و إن كانت الأمثلة التي سيقت حول إبدال الحرف الأخير أوفَر، لما أولاها أصحاب نظرية ثنائية اللغة من اهتمام ، على أن المحدثين أبدلوا – على الغالب – من الحرف الأوسط و الأخير .

المسألة الثانية : هي أي حروف البناء أحق بالإبدال لاستخدامها في تنويع المعنى العام ؟ إننا نجد أنفسنا أمام أربعة خيارات :

اعتماد صفة الحروف من حيث الشدة و الرخاوة ، فيعُطَى للمعنى الأشد الحرف الأشد ، و للمعنى الألينَ الحرف الألين ، و على هدي من هذا الخيار علَّل ابنُ جني الفرق بين (قَضَم و خَضَم) فقال :" فالخَضْم لأكْلِ الرّطب كالبطيخ و ما كان نحوه من المأكول الرَّطْب ، و القَضْم للصُلب اليابس نحو : (قَضَمَت الدابةُ شعيرَها) .... فا ختاروا الخاء لرخاوتِها للرَطْب ، و القاف لصلابتها لليابس ." (٧٥)

و إمَّا اعتماد القيمة التعبيرية للحرف . ومن الأمثلة التي يسوقونها على ذلك، أن الفاء أفادت في كلماتٍ معينة معنى الضَّعْف ، يقول الدكتور صبحي

الصالح : " و من أوضح الأمثلة على هذه الظاهرة اللغوية العجيبة ما ذكره ابنُ جني من (ازدحام الدال و التاء و الطاء و الراء و اللام و النون إذا ما زحَتهُن الفاءُ على التقديم و التأخير ، فأكثر أحوالها و مجموع معانيها أنها للوَهَن و الضَّعف و نحوهما)، أما شواهده على ذلك ففيها ما نرضاه و لا يَسَعُنا ردُّه (كالشيء التالف و الشيخ الدالف ، و الدَّنِف المريض ، و الفتور للضَعْف ، و الطفل للرَخْص) ....و واضح أن ابن جني يُعَوَّل في هذه الأمثلة طبيعِيَّها و متكلَّفِها على حرف (الفاء) فهو الذي أفاد بقيمته التعبيرية الخاصة معنى الوَهَن والضعف لدى ممازجته الدال و التاء والطاء و الراء واللام و النون (٧٦) .

و إمَّا اعتمادُ مخارج الحروف ، كأن يُختار لحرفٍ حلقي نريد إبدالَه حرفاً حلقياً آخر ، أو لحرفٍ شفهي حرفاً شفهياً . ومثال ذلك ما اقترحه عبد الله أمين من استعمال (أزْمَة) للضيق المالي و (أزْبَة) للضيق السياسي . بابدال الباء من الميم لتجانسهما أي اتفاقهما مخرجاً و اختلافها صفةً (٧٧).

و إما اعتمادُ حرفٍ من حروف الكلمة التي يُراد تضميَن الكلمة الواقع فيها الإبدال معناها . و هذا ما ذهب إليه بعضُ المعربِّين و الفيزيائين باستعمالهم (الكَهْرسَ) للكهرب السالب و (الكَهْرَج)للكهرب الموجب .(وأُوَيِّم) للأوَيِّل المعتدل . حيث أخذ السين من كلمة (سالب) و الجيم من كلمة (موجب)

و الميم من كلمة (معتدل) ، مع أن الميم ليست حرفاً أصلياً فيها . و مثله ما أخذ به الدكتور سلمان قطاية في مسيرات مصطلحات الخيل حيث عد (الكَبْح) هو المعنى الأصلي ،ونوَّع عليه فخصص أحرفاً من الكلمات التي أراد تضمينها الكبح فقال : (الكَمْح) الإيقاف الأمامي رامزاً للأمامي بالميم، و

(الكَمْخ) للخلفي رامزاً بالخاء للخلفي . وان كان ثمة فرق بين المثالين فاليافي ولَّد معتمداً ومقيساً الإبدال ، وقطاية مخصِّصاً إبدالاً قديماً .

والذي نراه أن الاهمَّ في هذه المسألة ليس هو ترجيحَ خيارٍ على آخر أو طريقة على أخرى ، بل هو ألاَّ يؤدي الإبدالُ المقترَح إلى حالةٍ من تنافر الحروف ممَّا يتعارض و البنية الصوتية العربية .

لقد حاول بعضُهم أن يَحْصُر الإبدال بين الحروف المتقاربِة مخرجاً أو

صفةً ، لكن استقراء حالات الإبدال بيَّنت أنَّه قد وقع بين حرفَيْن متقاربَيْن أو متباعدَيْن ، فمن وقوعه :

بين حرفين متجانسَيْن أي متفقين مخرجاً مختلفَيْن صفةً كالزاي والسين : (الزِّجز والسِّجس) .

أو متقاربَيْن مخرجاً مُتَّحدَيْن صفةً كالحاء والهاء نحو : قَحِل و قَهِل إذا يَبِس.

أو متقاربين مخرجاً وصفةً كالعين والهمزة في زُعاف و زُؤاف .

أو متقاربَيْن مَخْرَجاً و صفةً كالقاف و الكاف نحو : امتك الضَّرْعَ و أمتَقَّه : إذا رضع ما فيه .

أو متقاربَيْن صِفةً متباعدَيْن مخرجاً كاللام والراء في نحو : مُجَلَّف و مُجَرَّف لمن ذهب ماله .

أو متباعدَيْن مخرجاً متحدَيْن صِفةً نحو الغَيْم والغَيْن .

أو متباعدَيْن مخرجاً وصفةً كالجيم والحاء في نحو يجوس وبحوس (٧٨) .

هذه النتيجةُ ، وإن لم تُعْجب لغويِّين معاصرين ،لآنها تُذْهب هيبة نظرية القيمة التعبيريَّة للحرف العربي (٧٩) ، فإنهم لم يجدوا مايدفعونها به ،اللهم إلا مانُقل عن ابن سيده من أنه صرَّح : " ما لم يتقاربَ مخرجاه البته ، فقيل على حرفين غير متقاربَيْن فلا يُسَمَّى بَدلاً ، وذلك كإبدال حرفٍ من حروف الفم من حرفٍ من حروف الحَلق " (٨٠) ومانُقِل عن ابن جني من أنه لم يَعُدَّ (جاسوا وحاسوا) من الإبدال لأن الجيم ليست أخت الحاء (٨١) . ولكن ماحيلتنا إنْ كان ابنُ قتيبة قد نَقَل لنا عن العرب قولهم : (عانَشْت الرجلَ وعانْقتُه) (٨٢) فأبدل حرفاً شَجْرياً من حرف حلقي ؟ وإذا كان ابنُ عصفورٍ الإشبيلي قد نَقَل لنا أن العرب قالت : (أقَّتَتْ و وقَّتَتْ) (٨٣) فأبدل حرفاً حلقياً من فَمَوي ؟ وغيرها كثير مما جمعه السيوطي في مزهره (٨٤) .

وممن حرصَ على أن يُقَعِّد للإبدال الشيخ عبد الله العلايلي إذ يقول :

" ينبغي أن يَخْضَع لشروط حتى لايكون سبباً لاشتراك قريب :

ألا يستوفَ من مادة الإبدال كلُّ موازين التصريف ، فلايصاغ منه مصدرٌ ومأأشبهه اكتفاء بمصدر الاصل، ولايزاد فيها زيادات تصريفية .

ألا تجري عليها زيادةُ الاشتقاق .

ألاتُعَمِّم في كلِّ دوائر الثلاثي .

أن تُذْكَر في مادة المبدَل منه لافي مكانِها بحسب اقتضاء الحرف " (٨٥) .

ولعل العلايلي كان يرمي من شروطه إلى صون نظريِّة (التتقاليب الستة)

من أن تُمسَ ، لأن إجراء التصريف على الكلمة الواقع فيها الإبدال سوف يؤدي إلى توليد جذرٍ لغوي جديد يَستَعْصي على إيجاد علاقةٍ بين معناه ومعاني جذرٍ لغوي قديمٍ بالأحرف ذاتها ، فلو أجَرْينا على مصطلح (التختير) الذي سبق ذكرُه لنوعٍ معيَّن من أنواع التخدير إجراءات التصريف لآدَّى بنا ذلك إلى (خَتَّر وخَتَّر) الذي قد لايسهُل إيجاد علاقة بينه وبين معنى الحذر القديم (خَتَّر) وهو نقض العهد والفساد . مع أن القدماء أنفسهم استعملوا (الخَتَّر) بمعنى (الخَدَر) أيضاً .

و الذي نراه أن الإبدال اشتقاقٌ ، و الاشتقاق توليدٌ ، و ما وُلِد من صُلْب اللغةِ ، حروفِها و أصواتها و أبنيتِها، صار ابناً شرعيَّاً لها تسري عليه كلُّ أنظمتها اللغوية مع الزمن شئنا ذلك أم أبينا ، و كنا ذكَرْنا ما ورد في لسان العرب من قول أبي منصور الأزهري : " و العرب تُبدل الطاء تاء لقرب مخرجهِما ، قالوا : متَّ و مطَّ و مدَّ " ، فهل وقفت العرب عند هذا الإبدال في الجذر و لم تُجْرِ عليه أشكال التصريف ؟ ألم تَضع من كلٍّ منها مصدراً و مضارعاً و صفاتٍ ؟ بلى قد فعلت ذلك فقالت من (مَتَّ) : المِتَات : ما مُتَّ به ، المِوَاتّ : الوسائل ، تَمَتَّى بالحبل : اعتمد . و قالت من (مَطَّ) : يمُط ، يَتَمَطَّط ، المِطْمَطة ، المِطيطة (طين لزج) ...(٨٦)

ثم إذا كنا نشتق من الكلمة المعرَّبة و نُجري عليها قوانين العربية و هي أجنبية عنها أصلاً ، أفيصح أن نَحْرِم ذلك الكلمة العربية المولَّدة بالإبدال ؟

إنا نرى أن الإبدال مَنْجم غنيٌّ للتوليد و الاشتقاق ، و أنه لم يُوظَّف حتى الآن لخدمة اللغة كما يجب ، و نرى أن أهمَّ مجال يمكن الإفادة منه فيه هو الفروقات النوعية في مسَّميات أشياء لم يألفها العرب في بيئتهم ، أو مسمَّيات

أدَّى إليها التقدّثم العلمي و التقني .

و لنضرب مثلاً بتسميات الألوان – لقد أقرَّ مجمع القاهرة في دور انعقاده الرابع سنة ١٩٣٧ مصطلحات للألوان الفرعية فقال :" أصفر فاقع ، أصفر ليموني ، أصفر كرومي ناصع ، أصفر كرومي قاتم ، أزرق كوبالتي، أزرق رمادي ، أزرق بروسي ، أخضر زرعي ، أخضر هوكر ، أخضر زمردي، أخضر نيوني ." (٨٧) و هي كما نرى مصطلحات تقوم على التراكيب الوصفية و المعقَّدة أحياناً . فما المانع من أن يُلجأ إلى ظاهرة الإبدال للإفادة منها في توليد مصطلحات من كلمة واحدة ، و يمكن في هذه الحالة إبدال أحد أحرف اللون الأساسي و اختيار الحرف البديل مما يُلْمِح إلى اللون المراد ، كأن يقال :(أصفل) بدل أصفر ليموني و (أصفك) بدل أصفر كرومي ، و (أصفق) بدل أصفر قاتم . و أن يقال :(أزرب) بدل أزرق بروسي . و هذه هي الطريقة التي لجأ إليها بعض معربي جامعة دمشق عندما قالوا (كهرس) بدل كهرب سالب . قد يبدو هذا الطرح غريباً بعض الشيء ،

لكن غرابته ستزول متى عرفنا أن العرب استخدمت الإبدال للتعبير عن الفروق اللونية بالذات ، ورد في ديوان الأدب : " الأَغْثَر قريب من الأغْبَر... و الأغْبَس الذي على لون الذئب ... و الأغْثَم الذي غلَب بياضُه سوادُه . " (٨٨) و جاء في مخصص ابن سيده : " في العين الشَّهَل والشُّهْلَة، و هو أن تُشْرِبَ الحدقة حمرةً ليست خطوطاً كالشُّكلة ، و لكنها قِلَّةُ سواد الحدقة حتى كأن سوادَها يضرب إلى الحمرة .... و فيها الشَّكلة ، و الشُّكلة : و هي حُمْرة تخالط البياض ، و رجل أشكل و امرأة شكلاء " (٨٩) و دون النظر إلى أي الكلمتين

هي الأصل و أيها المبدَل فيها ، فإن استخدام ظاهرة الإبدال للتنويعات اللونية عند العرب باديةٌ للعيان هنا .

و لنضربْ مثلاً آخر مما لم يكن شائعاً في البيئة الصحراوية و هو كلمة (الثلج) ، فمن الطبيعي ألاَّ يكونَ لها في لغتنا تسمياتٌ عِدَّة تدل على حالاته

و تنوعاته كما في اللغة الفنلندية (٩١) مما يَجْبَه المترجم بوحدات غير قابلة للترجمة مباشرة ، فلا بد من مواجهتها ، إمَّا بالتعريب و إما بالترجمة بتراكيبَ وصفية أو إضافية ؛ و لا نرى مانعاً يحول دون الإفادة من ظاهرة الإبدال في العربية كأن يقال في الثلج المختلط بالبَرَدَ (ثَبْج) وللمختلط بالمطر (ثَمَجْ) و للمصحوب بريح شديدة (ثَرْج) ، أو غير ذلك مِمَّا قد لا يتجافي عنه السمع .

و إذا كان من المحدَثين من شَرَطِ لِصحة الإبدال شُروطاً ، فان منهم من رفَضَ استخدامه لتوليدِ ألفاظ جديدة ، كتوليد (الإزغاء و الإسغاء) من (الإصغاء) ، بحجة مجافاة ذلك للذوق السليم ولِما فيه من تشويهٍ للعربية

و تجاوزٍ على هويتها ، وأنه لم يسمع عن القدماء أنهم دعَوْا إلى اتخاذ الإبدال سبيلاً إلى توليد ألفاظٍ جديدة (٩١) . و هي حُجَجٌ لا يؤيدها الواقع ،فتشويهُ العربية و التجاوز على هويتها ليس سببُه ــ إن وقع ــ الإبدالَ ، بل لأن المبْدِل لم يراع النظام الصوتي للعربية . أمَّا أنَّ القدماء لم يَدْعُوا إليه ــ مع أنهم دَرسَوه ــ فمردُّه إلى أنَّ الحاجة لم تلْجِئهم ،و لو أَلجأَتْهم لفَعلَوا

وخلاصة ما نراه أنَّ الإبدال من الظواهر اللغوية الهامة في لغتنا ،ونرى أن يُفَادَ منه في تسمية الفروقات النوعية بين الأشياء المتشابهة ، و لا يُشْتَرَط في هذا الاشتقاق الإبدالي إلا ثلاثة أشياء :

آـ ألا يُؤَدي هذا الإبدال إلى ولادة كلمةٍ ذات حروف لا تَأْتلف أو لا تنسجم مع النظام الصوتي للعربية .

بـ ألا يؤدي الإبدال إلى مشترك لَفْظي ـ ما أمكن ذلك ـ و إذا كان لا بد من وقوع الاشتراك فيُفَضَّل المشتَرَكُ اللفظي الأَقل شيوعاً . أمَّا مَنْع وقوعه فأمر غير ممكن .

و الهامش المتَاح لنا لِمراعاةِ هذين الشرطَيْن هو حريَّتنا في اختيارِ موقع الحرف المبدَل منه و طبيعةُ الحرف المبدَل .

جـأن يُقْصَر استعمالُ الإبدال على المصطلحات العلمية و للضرورة ، أي عند انعدام إمكانية الترجمة أو الاشتقاق الصرفيّ .

التوصيات الخاصة :

اعتماد الاشتقاق اللغوي بأنواعه : الإبدالي و التقليبي و النحتي و الإلحاقي وسيلة من وسائل وضع المصطلح العلمي العربي .

الإفادة من الاشتقاق اللغوي عامة و الإبدالي منه خاصة في الدلالة على الفروقات التنويعية و التدرجيَّة في المصطلح العام.

أن تراعى خصائص العربية الصوتية و الصرفية و الدلالية عند إعمال الاشتقاق اللغوي لئلا يؤدي هذا الاشتقاق إلى ألفاظ لا تتفق وتلك الخصائص .

أن يقتصر في الإفادة من الاشتقاق اللغوي على مقتضيات الاصطلاح العلمي.

التوصيات العامة :

تعميق تعليم وتدريس العربية في مراحل الدراسة كافة

إدخال مقرر علم المصطلح ومنهجية التعريب في المناهج الجامعية للكليات ذات العلاقة .

التوثيق:

١- عبد الله أمين – الاشتقاق :١

٢- د. صبحي الصالح –دراسات في فقه اللغه :٢٣٤

٣- ابن جني – الخصائص ٢ : ١٣٣ -١٣٤

٤- عبد اله أمين – الاشتقاق : ١

٥- ينظر : الطي الاسترابادي – شرح الشافية ١ : ٥٢

٦- ابن فارس الصاحبي : ٧٠ و ٢٢٧

٧- ينظر : د. أسعد علي و تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : ٧٣ – ٧٤

٨- و د. مزيد نعيم : الصيغ الرباعية و الخماسية ١٦٢

٩- و د. ناصر حسن علي : الصيغ الثلاثية : ٢٢٧

١٠- علي عبد الواحد وافي – فقد اللغة : ١٩٧

١١- د. صبحي الصالح : دراسات في فقه اللغة ٢٠٤

١٢- عبد الله أمين – الاشتقاق : ٣٩١

١٣- د. محمد المنجي الصيادي – التعريب و تنسيقه في الوطن العربي : ٦١-٦٢

١٤- مصطفى الشهابي – المولد والعامي – مجلة مجمع دمشق ج ٣٢ / ٣ : ٣٨٨ – ٣٨٩

١٥- اللسان –زرق

١٦- ١٤) جمعية المعجمية بتونس – المعجم العربي المختص : ١٩٢ – ٢٠٥

١٧- المرجع السابق نفسه

١٨- السيوطي – المزهر ١ : ٣٤٧

١٩- اللسان حذلق

٢٠- عبد الله أمين / الاشتقاق : ٣٣١

٢١- عز الدين التنوخي / مقدمة كتاب الابدال لأبي الطيب اللغوي ١ : ٩

٢٢- ابن عصفور الاشبيلي / الممتع في التصريف ١ : ٣٢٦ – و سيبويه ٤ /٢٣٩

٢٣- ابن السكيت / الإبدال : ٦١ ، ٧٧

٢٤- السيوطي / المزهر ١ :٤٦٠

٢٥- عز الدين التنوخي / مقدمة كتاب الإبدال لأبي الطيب ١ : ٦-٧

٢٦- السكاكي – مفتاح العلوم : ١٥ و يسمَّيه الاشتقاق الأكبر ، و يمثل له بـ نعق و نهق .

٢٧- السيوطي / المزهر ١ : ٤٦٠

٢٨- المرجع السابق نفسه ١ : ٥٣٨

٢٩- ٢٧) المرجع السابق نفسه ١ : ٤٦٢

٣٠- ٢٨) ابن جني سرصناعة الأعراب ١: ٢٤٦

٣١- أبو حيان الاندلسي –البحر المحيط ٥: ٣٠٧ . وهي الايه ٣٥ من سورة يوسف

٣٢- القالي /الامالي ١ : ١٨٦

٣٣- عز الدين التنوخي / مقدمة كتاب الابدال لابي الطيب ١: ٨

٣٤- ابن الناظم /شرح الألفيه : ٨٦٣

٣٥- ابن مالك : تسهيل الفوائد :٣٠٠

٣٦- ابن السكيت /الإبدال :٩٢

٣٧- المرجع السابق نفسه : ٩٩

٣٨- المرجع السابق نفسه :١٤١

٣٩- المرجع السابق نفسه :١٢١

٤٠- ابن السكيت /الإبدال :١٢٤

٤١- المرجع السابق نفسه :١١١

٤٢- المرجع السابق نفسه :١١٣-١١٤

٤٣- السيوطي – المزهر ١: ٤٦١ وينظر : د. صبحي الصالح –دراسات في فقه اللغة :٢٦٥

٤٤- د:محمد حماسة عبد الطيف /ظاهرة الإعلال والإبدال في العربية ... /مجلة مجمع القاهرة

٤٥- ج ٤٨ :١٥٥

٤٦- د. مصطفى جواد /أثر التضعيف في تطور اللغة العربية والإبدال ... /مجلة مجمع القاهرة

٤٧- ج ١٩: ٥٨

٤٨- العبهلة :الإهمال والترك

٤٩- السيوطي /المزهر ١: ٤٦٠

٥٠- ابن جني / سرصناعة الاعراب ١ : ٢٤٦

٥١- السيوطي /المزهر ١: ٣٤٧

٥٢- هفنر/ الكنز اللغوي – الإبدال لابن السكيت :٣

٥٣- الفارابي / ديوان الأدب ١: ٣٤٥

٥٤- الثعالبي / فقه اللغة : ٢٢٥

٥٥- المرجع نفسه :٢٣٧

٥٦- المرجع نفسه: ٢٠٨

٥٧- ابن سيدة /المخصص ١ :١٠٢

٥٨- المرجع نفسه ٩٣/١

٥٩- المرجع نفسه ٧١/١

٦٠- ابن منظور/ لسان العرب : بجر

٦١- المرجع نفسه : بعط

٦٢- المرجع نفسه : تلع

٦٣- د. صبح الصالح / دراسات في فقه اللغة :٢٣٩

٦٤- ابن جني /الخصائص ٢ : ١٥٢

٦٥- المرجع نفسه ٨٢/٢

٦٦- ينظر محمد المبارك / فقه اللغة وخصائص العربية : ١١١ ود. علي عبد الواحد وافي فقه

٦٧- اللغة :١٨٦

٦٨- د. صبحي الصالح / دراسات في فقه اللغة : ١٦٥

٦٩- د. صبحي الصالح –دراسات في فقه اللغة :١٦٧

٧٠- عبد الله أمين/ الاشتقاق :٣٧٠

٧١- يسمي بعضهم الإبدال تعاقب أو معاقبة

٧٢- عز الدين التنوخي/ مقدمة الإبدال لابي الطيب اللغوي ١: ٤٢

٧٣- عز الدين التوخي- الإبدال اللغوي لابي الطيب – المقدمة ١ :٤٢

٧٤- د.أسعد علي / تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : ١٧٨

٧٥- عز الدين التنوخي – مقدمة كتاب الإبدال لابي الطيب اللغوي ١: ٤٢

٧٦- مصطفى الشهابي / ملاحظات على معجم الألفاظ الزراعية- مجلة مجمع دمشق ٣/٢٣ :٢٥

٧٧- د. سلمان قطاية/ مصطلحات سيرات الخيل / مجلة المجمع الأردني ٣٥ : ٢٢٣

٧٨- د. عبد الكريم اليافي / تجربتي في تعريب المصطلحات العلمية / مجلة مجمع دمشق ٤/٥٣ : ٨٠٦

٧٩- د. صلاح الدين الكواكبي – مصطلحات علمية : ١٣

٨٠- ابن جني / الخصائص ٢ : ١٥٧ –١٥٨

٨١- د. صبحي الصالح /دراسات في فقه اللغة : ١٥٣ –١٥٤

٨٢- عبد الله أمين / الاشتقاق :٣٧٠

٨٣- عبد الله أمين / الاشتقاق :٣٥٤ –٣٦٧

٨٤- د. صبحي الصالح /دراسات في فقه اللغة :٢٤٦

٨٥- ابن سيدة /المخصص ١٣: ٢٧٤

٨٦- د.صبحي الصالح /دراسات في فقه اللغة : ٢٦٦

٨٧- ابن قتيبة – أدب الكاتب :٣٧٦

٨٨- ابن عصفور/المتع في التصريف ١: ٤٦٢ ومابعدها

٨٩- السيوطي / المزهر ١: ٤٦٢ ومابعدها

٩٠- د. أسعد علي / تهذيب المقدمة اللغوية للعلايلي : ١٧٨

٩١- ابن منظور /لسان العرب : مت ، مط

٩٢- مجمع القاهرة / مصطلحات الألوان التي أقرها المجمع / مجلة مجمع القاهرة ٤: ٢٢-٢٣

٩٣- الفارابي / ديوان الأدب ١: ٢٧١-٢٧٢

٩٤- ابن سيدة – المخصص ١: ٩٩-١٠٠

٩٥- د.فوزي عطية – علم الترجمة :١٩٥

٩٦- د. جميل الملائكة – المصطلح العلمي ووحدة الفكر – مجلة المجمع العراقي ج ٣/٣٤: ١٠٩